من مزاعم الفكر المادي الإلحادي

١ ــ الوجود فى أصله وتنوعاته مادى

٢ ــ المادة خالقة لا مخلوقة .

الدكتور / أحمد عبد حموده الجمل

كلية أصول الدين ــ القاهرة

قسم العقيدة والفلسفة

المتتبع لحركة الفكر الإنسانى فى مسيرته عبر الزمان والمكان قديما وحديثا يستطيع أن يرصد عدة اتجاهات أساسية تلم شعثه وتنظم عقده ، وتحدد ملامحه . هذه الاتجاهات يمكن أن تصنف إجمالا فى ثلاث :

١ ــ الاتجاه الأحادى الروحى .

٢ ــ الاتجاه الأحادى المادى .

٣ ــ الاتجاه الثنائى .

فالاتجاه الأحادى الروحى ، اتجاه فلسفى قديم ، يؤسس على القول بوجود أصل واحد ، أو عنصر واحد ترجع إليه كل الظواهر والتنوعات فى الوجود ، وهذا يفسر كونه أحاديا أو واحديا . أما أنه روحى .فلأنه يرى أن الروح فقط هى الأصل أو الأساس أو العنصر الذى به وحده يفهم أصل الوجود ، وتعزى إليه كل تنوعاته .

أما الاتجاه الأحادى المادى ، فهو كذلك اتجاه فلسفى قديم يثق فى أن المادة وحدها هى الأساس الأوحد للوجود ما فى أصله وظواهره ،

فهو من ثمة يلتقى مع الاتجاه الأول فى القول بالأحادية أو الواحدية ، ويفترق عنه بإقرار المادة دون الروح .

أما الاتجاه الثانى ، أو الاثنينى، فهو اتجاه فلسفى يقول بوجود أساسين متعاونين : المادة والروح ، وهو اتجاه قديم تبناه فلاسفة عظام ، منذ طلوع فجر الإنسانية إلى اليوم .

كما قد تبنى الاتجاهين الآخرين مفكرون وفلاسفة فى القديم وفى الحديث وعلم التاريخ وسجل مقولاتهم وآراءهم التى نسجوها حول ذينك الاتجاهين.

ومن المفيد هنا أن نذكر أن الاتجاهات الدينية بعامة يشملها الاتجاه الثانى . فأرباب الديانات والملل بله الرسالات السماوية تقر إقراراً تاما بالمادة والروح ، أو بما يسمى فى نطاق الفلسفة : الطبيعة ، وما وراء الطبيعة .

ولنا أن نفهم من هذا التصنيف الثلاثى لاتجاهات الفكر الإنسانى أن القائلين بالثنائية ليسوا ماديين ، لقولهم بما وراء المادة ، كما أنه من باب أولى ، لا يكون القائلون بالروح وحدها ماديين ، لإنكارهم مادون الروح تماما .

أما الماديون على الحقيقة ، فهم القائلون بالمادة وحدها ، وبها يفسرون الوجود بدءاً وتطورا .

ومفهوم المادة عندهم ، هو ذلك الذى ينصرف إلى العالم المحسوس ، الذى يدرك بالحواس مباشرة ، ومفهوم الماديين لذلك يخص الفلاسفة والمفكرين الذين لا يعترفون بالوجود إلا للأشياء والأجسام المادية فقط .

والمادية التى هى عقيدة الماديين ، قديمة قدم الحضارة الإنسانية . فنراها فى البوذية عند قدماء الهنود ، وفى النظم الدينية عند الصينيين ، وعند أعظم الأمم القديمة مدنية — أعنى المصريين — ونجدها فى شكل

منظم عند اليونان الأولين . فقد كان فلاسفتهم الأقدمون ماديين(١)» .

وتعبر المادية القديمة الزمان ، فنجدها — وبخاصة المادية اليونانية — قد انتعشت فى أوربا منذ القرن السادس عشر الميلادى ، حيث دخل العلم الحديث بكشوفه الضخمة ، وجاءت الثورة الصناعية بتحولات جذرية فى العلم والفكر ، ونتج عن ذلك بوجه عام أن «نظر كثير من العلماء إلى الوجود نظرة مادية بحتة ، فأصبحوا لا يرون فيه غير المادة ، وأصبحت الحياة فى نظرهم ... صفة من صفات المادة» .

وبذا أنكروا الروح إنكاراً تاما ، وأنكروا وجود الله ، ومن هنا ثارت عليهم الطوائف الدينية كلها ، ووصفتهم بأنهم ماديون ، ووصفت مذهبهم بأنه مادى »(٢) .

ومن حيث أن المقام لا يتفسح لمزيد من حديث عن تاريخ وتطور الفكر المادى ، ولا عن مزيد من الحديث عن مفهوم المادة ، والفكر المادى ، ولا عن التفرقة بين مادية الفكر ومادية العلم . فإننا نترك كل ذلك ، لندخل إلى مرتكزات الفكر المادى .

الفكر المادى إذن بالمفهوم السابق فكر كفرى إلحادى ، يلوذ بالمادة وحدها ، ويشكل أكبر هجمة على الدين ومقرراته عبر التاريخ كله .

ولكى يصنع إطاراً فلسفيا لمنحاه هذا قال عن وثاقة :

١ — الوجود فى أصله وتنوعاته مادى بحت .

---

(١) مبادىء الفلسفة ، ا . س رابوبرت ، ترجمة أحمد أمين ، ص ١٧٩ ، ط ٥ ، ١٩٤١ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه ، د/ محمود عبد الحكيم عثمان ، ص ١٥ ، مطبعة حسان ، نشر مكتبة الأنجلو المصرية .

٢ — المادة أزلية أبدية .

٣ — المادة خالقة لا مخلوقة .

٤ — الموجود هو المحسوس .

٥ — أدوات المعرفة منحصرة فى الحواس وحدها .

٦ — العلم بديل عن الدين فى توجيه الحياة والإنسان .

٧ — الأخلاق محكومة تماما بالمنفعة المادية .

ولنتصور فى ضـــوء كل ذلك ماذا عساه يكون موقف الماديين من قضايا الدين ومقرراته . ولن نحتاج إلى كثير من التأمل لنعرف أن المادية هى أعدى أعداء الدين ، وأعنف المخاطر التى يمكن أن يواجهها .

والحديث مع الفكر المادى فى كل مزاعمه يطول ، ومن ثم آثرنا أن نقف معه فى زعمين من هذه المزاعم نرسل معه حبل الكلام فيهما ، لنرى إلى أى مدى قد يصيب فيهما أو يخطىء .

الزعم الأول : الوجود فى أصله وتنوعاته مادة . وهذا الزعم يمثل أصل الأصول فى الفكر المادى ، قديمه وحديثه على السواء ، فالمادية فى حقيقتها تطلق ، على المذهب القائل بأن الظواهر المتعددة للأشياء ترجع إلى أساس واحد هو المادة .

ويرى أن العالم مجموعة مكونة من شىء واحد هو المادة ، ويذهب إلى أن المادة أساس كل شىء »(١).

لا فرق فى ذلك بين المادية القديمة ، والمادية الحديثة كما ذكرنا ،

---

(١) مبادىء الفلسفة ، ص ١٧٢ .

فالمادية الحديثة مثلا، تركز تركيزا تاما إلى « أن كل شيء إما مادة ، أو مظهر من مظاهر المادة ، والمادة لا تحد ولا تفنى ؛ وقوانينها أزلية لا تتغير .

وهذه المادة لم يخلقها الله ولا الإنسان — بل هي قديمة — أزلية أبدية ، لا تتغير ولا تفنى . وليس في هذا العالم شيء يعتريه الفناء ، ولا ذرة واحدة ، وإنما تتغير الأشكال »(١).

ولأن كل شيء إما مادة ، أو مظهر لها ، فإن العقل والفكر والنفس والوجدان والعاطفة كلها من ثمار المادة ، أو حالة من حالاتها .

حتى الموت ذاته حالة من حالات المادة ، وتغير من تغيراتها .

وإذا صح ذلك في منطق الفكر المادي ، فلا إله يفوق هذا العالم المادي ويباينه ، وقل بعد ذلك كل ما يمكن أن يقال . فكل مقررات الأديان عن عالم ما وراء المادة ، أو ما وراء الطبيعة ، هراء من القول ، وخرافة باهتة ، قضى عليها نهائيا .

ومن مترتبات ذلك أيضا : أن المعرفة حسية ، والأخلاق مادية .

إن قناعة الفكر المادي بالمادة وحدها ، جعلت منه عدواً شرساً وتقليدياً للأديان ، والفكر الديني .

ولأن الفكر المادي قد وجد في منتجات العلم ما يؤيد به مزاعمه ، بل ما جعله يدعى لتلك المزاعم العلمية . فإننا سنتجه إلى العلم نفسه ، نستنطقه ، حقيقة هذا الزعم ؟.

---

(١) تمهيد للفلسفة ، د/ محمود حمدي زقزوق ، ص ١٨٠ ، مكتبة الأنجلو المصرية .

والبداية مع العلم ستكون مع العلم الحديث الذى كان أمضى سلاح فى يد الفكر المادى ، حسم به قضية مادية الوجود .

والبداية مع العلم الحديث ستكون مع مجال الأبحاث المرتبطة بالروح ، لنرى إلى أى حد عالج هذه الأبحاث ، وبأى منهج تناولها ، وإلى أى مدى من النتائج بلغ فيها .

والبداية بهذه الصورة طبيعية منطقية علمية معا ، لأن الإقرار العلمى ، بالروح ، هو إقرار بموجودات وراء المادة ، وهو إقرار حاسم بعالم المجردات ، هذا العالم الذى تنافح عن حقيقة الأديان والفكر الدينى .

وكل ذلك بلاشك يحدث خللا كبيراً فى البناء الفكرى للاتجاه المادى ، ويهز أصله الأصيل من قواعده ، ليضطرب البناء كله .

فماذا نحن واجدون لدى العلم .. بداية نقرر :

١ — أن مجال الأبحاث الروحية كان من المجالات التى اتجه إليها العلم ، وأغرب منه اتجاه الماديين أنفسهم إليه ، منذ ما يقرب من نهاية القرن الماضى .

٢ — أن هذه الأبحاث اضطر إليها العلم اضطرارا ، لأنه قد استبان له أنه لا يستطيع أن يحل معضلات الكون ، وظواهر الوجود وفق الأبحاث فى المادة وحدها ، وأدرك عن يقين أن كل ماحصله من مكتشفات علمية لا تتجاوز العلاقات الظاهرية فقط ، دون النفاذ إلى ما وراء تلك العلاقات ، وأن وسائل التجربة الحسية غير كافية فى التعرف على العالم الكامن وراء تلك الظواهر .

٣ — أن هذه الأبحاث ، داخلتها مناهج العلم الحديث ، فعولجت على أساس من المشاهدة والتجربة ، فكانت له نتائج جد نفيسة فى نطاق هذه الأبحاث .

ف «الأبحاث الروحية الحديثة ، التي تقوم على التجارب والمشاهدات ، قد أثبتت وجود أشياء ، كثيراً ما كان الماديون ينكرونها ، وبواسطة هذه الاكتشافات قد انحسرت الموجة الإلحادية ، وأصبح الإلحاد يواجه بواسطة المنهج التجريبي ، الذي يعتمد عليه»(١) .

٤ — أنه قد تشكلت للدراسات الروحية فرقا من العلماء ، فضلا عن الأفراد ، تأسست منهم جمعيات ، في انجلترا ، وأمريكا وفرنسا ، وغيرها تحمل أسماء مختلفة .

٥ — أن الماديين أنفسهم بل غلاة الماديين ، قد اتجهوا إلى تلك الأبحاث . وأسهموا فيها ، من مثل (الفرد روسل والس) المادى الذى بلغ من ماديته أنه قد شارك دارون فى التوصل إلى نظرية التطور ، وهى النظرية التى جعلت للإلحاد المعاصر أساسا قويا يعتمد عليه(٢) .

هذه بعض الحقائق عن وضع الأبحاث الروحية فى نطاق الجهود المعاصرة ، آية على انتكاسة الفكر المادى ، فى منطق العلم .

ويعبر أحد العلماء الألمان الشهيرين ، وهو (كارل دوبرل) عن اتجاه العلوم الطبيعية إلى بحث الروح والنفس ، بعد نكران ، فيقول : (إن العلوم الطبيعية قد تجرأت على نكران خلود النفس ، فعاقبها الله بأن حكم عليها بأن تكون هى نفسها التى تقيم على ذلك الخلود البرهان القاطع ، ماهى تلك العقبة التى اصطدم بها مذهب المادة فارتد طرفه خاسئا وهو حسير ؟ هى ظهور طائفة الروحيين) »(٣) .

---

(١) محمد فريد وجدى ، حياته وفلسفته د/ محمد على عز العرب السماحى ، ص ٢٣٨ ، رسالة دكتوراه ، مخطوطة

(٢) محمد فريد وجدى حياته وفلسفته ص ٢٣٨

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٣٩ ، وهو ناقل عن : محمد فريد وجدى ، فى كتابه : الحديقة الفكرية فى إثبات الله بالبراهين الطبيعية ، ص ٥٦

إن الأبحاث الروحية ، مهما قيل فى دقتها ونتائجها ، ومهما قيل فى باعثها وغايتها(١) ، لا شك تمثل ردة قوية عن المادية المغرقة ، كما تمثل فى نفس الوقت اعترافا علميا بجانب من الوجود جافاه العلم أزمانا ، من حيث إنه ليس ماديا ، ولا يناله الحس والتجربة ، ولا يخضع لقوانين المادة وطرق بحثها . فعاد يطبق عليه منهجه ، بعد الإقرار به ، ويحاول الوصول فيه إلى نتائج ، مما أدى الأمر فى الغرب المسيحى إلى إنتشار الاهتمام « بهذا الموضوع إنتشاراً كبيراً ، وكثر القائلون بالأرواح ، وصحة الحوادث التى تنتسب إليها ، وبلغ من هذا الانتشار وأهميته أن اضطر القائمون على أمر الكنائس المسيحية إلى بحث هذا الأمر ، والتعديل فى تعاليم الكنيسة ، حتى لا تخسر الأعداد المتزايدة من القائلين بالأرواح »(٢) .

والمحصلة الهامة من إتجاه العلم والعلماء إلى مجال الروح ، هى أنه « (قد تبين — على الأقل — أن الإمعان فى البحث عن حقيقة المادة يؤدى بنا إلى الحقيقة المجردة ، وينتهى بنا إلى التسليم بكائنات (لامادية) ، تخالف ما كنا ندركه من صور المادة المحسوسة ، ولابد من الحقيقة المجردة ، إلى جانب الحقائق الاعتبارية ، أو الحقائق التى يقاس بعضها إلى بعض ، ولا تستقل بذواتها عن وجود آخر وراءها ، يسميه علماء المادة أنفسهم

---

(١) راجع : محمد فريد وجدى حياته وفلسفته ، ص ٥٧٨ وما بعدها ، حيث أشار الباحث إلى ظاهرة الروحية المتمثلة فى التنويم المغناطيسى ، وتحضير الأرواح ، وحاول إثبات عدم علميتها ، وصلتها بالصهيونية ، وراجع : الدين فى مواجهة العلم ، هامش ص ٥٤٧ ففيه إشارة إلى فكرة مشاهدة الروح واحضارها فى مصر والعالم العربى والإسلامى

(٢) الفكر المادى الحديث ... ، ص ٥٠٦

وجوداً لامادياً ، للتمييز بينه وبين الموجبات والسوالب والمحايدات وسائر الإضافات »(١) .

وبذا أكد العلم تأكيداً قاطعاً أن الحقيقة المجردة عن المادة موجودة وجوداً استقلاليا عن المادة ، وأن الإنسان بذلك ليس هو الجسم المادى فقط،أو أنه فى كل تركيباته مادة ، فأبطل زعم الماديين أن الروح ليست شيئاً خارجياً (عن الجسم) ، فكما يحدث تأثير معين من تركيب عقاقير فى دواء واحد ، وكما تخرج موسيقى معينة بضرب الأوتار بترتيب معين ، كذلك يوجد بتركيب العناصر على نمط معين مزاج خاص هو السبب فى الإدراك والتخيل الفكرى ، وهو ما تسميه الروح »(٢) . فالروح من خواص المادة ، وليست شيئاً وراءها ، هكذا يزعم الماديون .

فجاء العلم يدحض هذا الزعم الحسى المغالى ، ويقرر وجود الروح ، على نحو مغاير للبدن ، إذ لو ، كانت الروح مظهراً من مظاهر الجسم لكان من الواجب أن تخضع هذه الروح لقوانين الزمان والمكان مثل خضوع الجسم لها ، . . وحيث أن التجربة تثبت قطعياً أن هذا غير صحيح بالنسبة للروح دون الجسم ، فإن الذى لابد من قوله : أن للروح وجود آخر غير الجسم ، يختلف عن نوعيته ، ومنفصل فى وجوده .

إن علاقة الجسم بالروح تختلف تماما عن علاقة النغمة الموسيقية بآلتها والحركة بماكينتها ، وإلا لا نسحبت عليها نفس القوانين التى تخضع

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥٠٧ ، وهو ناقل عن المرحوم عباس العقاد من كتابه : الله ، ص ١١ ، ط ٥ ، دار المعارف .

(٢) الدين فى مواجهة العلم ، ص ٤٢

لها النعمة والحركة، ولكن القوانين التى تنسحب على الجسم لا تنسحب على الروح »(١) .

وقد أكد هذا الاختلاف البين بين الجسم وبين القوى غير الجسمية، ومنها النفس، علم النفس الحديث، لمـــا اكتشف علماء النفس ما أسموه (اللاشعور، أو ماوراء الشعور) . « والذى يحتوى على الجزء الأكبر من المخ الإنسانى المختزن للمعلومات، وقد أصبح من المسلمات الآن . أن الأفكار التى يختزنها اللاشعور تبقى فيه حتى نهاية الحياة »(٢).

وعمل هذا اللاشعور مستقل عن حدود الزمان، « فإن الدوافع الحبيسة التى لم تخرج قط عن اللاشعور ، وحتى التأملات الخيالية التى دفنت فى اللاشعور تكون أزلية فى الحقيقة والواقع، وتبقى محفوظة لعشرات السنين، وكأنها لم تحدث إلا بالأمس .

إن كون عمل اللاشعور مستقلا عن حدود الوقت (الزمان) يبين أن اللاشعور وجود منفصل عن الجسم، لأن من المسلمات التى أجمع عليها كل العلماء أن الجسم خاضع لقوانين الزمان والمكان (البعد) ، وكل مظاهر الجسم تقع فى نطاق هذه الحدود »(٣)، الزمانية والمكانية .

هذا ماقرره علم النفس الحديث، على لسان واحد من أهم وأبرز رواده، إن لم يكن هو مؤسسه الحقيقى ، وهو (سيجموند فرويد) رائد التحليل النفسى دون منازع، والذى اهتدى من خلال دراساته النفسية إلى مايعرف الآن فى علم النفس (باللاشعور) ، فـ « مهما يكن من شىء ، فإن علماء

---

(١) الدين فى مواجهة العلم ، ص ٤٤
(٢) المصدر السابق ، ص ٤٣
(٣) المصدر السابق ، ص ٤٤

النفس المحدثين يشيرون إلى (سيجموند فرويد) الطبيب النمسوى (١٨٥٦ — ١٩٣٩) على أنه صاحب الفضل فى الكشف عن هذا الجانب الخفى المعتم فى النفس البشرية ، وهو اللاشعور ، بعد أن كان مجهول الأثر فى الحياة النفسية بشكل عام »(١) .

وقبله كان من المعتقد أنه يمكن أن يكتفى علم النفس بالبحث فى الدوافع المشهودة المعروفة والظاهرة ، بيد أن ذلك قد ثبت قصوره ، واضطر علم النفس على يد فرويد ، أن يراجع نفسه ، ويحاول أن يغور إلى ما تحت السطح البادى للحياة النفسية وكيف لا يفعل ذلك ، وقد أضحى ما نعرفه عن عقولنا ودوافعنا مجرد قشرة سطحية ، تخفى وراءها عالماً آخر »(٢) .

ويقرر فرويد أنه «لا شيء فى اللاشعور يطابق الفكر الزمنى ، ولا يوجد فيه أى رمز لمعنى الوقت وسريانه ، وهى حقيقة محيرة ، ولم يحاول الفلاسفة أن يتأملوا حقيقة أن مضى الزمن لا يحدث أى تغيير فى العمل الذهنى »(٣) .

إن قرار علم النفس هذا يبرز حقيقة واضحة ، هى أن الشخصية الإنسانية تعنى عدم التغير فى عالم متغير ، بوصفها حاوية لقوى ثابتة ، لا تقع تحت سلطان قوانين المادة والماديات المتغيرة بتغير الزمان والمكان .

---

(١) قراءات إسلامية فى علم النفس العام ، د / محمد عبد الفضيل عبد العزيز ، ص ٥٤

(٢) قراءات إسلامية فى علم النفس العام ، د / محمد عبد الفضيل عبد العزيز ، ص ٥٣

(٣) الدين فى مواجهة العلم ، ص ٤٣

وفوق ذلك، فإن المكشوف الحديثة قد فتحت آفاقاً جديدة من الوقائع والحقائق، التى يمكننا أن نقول فى ضوئها: إن وجود الروح — ككائن مستقل، وبقاءها بعد فناء الجسم — لم يعد قضية وجدانية، بل أصبح حقيقة يمكن إثباتها بالدليل التجريبى.

لقد كشف لنا العلم أن الجسم يتركب من خلايا متناهية فى الوجود تقريباً، وهذه الخلايا تتحطم وتفنى فى كل آن، والغذاء يعوض أجسامنا — ويبلغ متوسطها فى جسم الإنسان ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر١٠ خلية، عن تلك الخلايا التى تفقدها كل يوم، فكأن الجسم بناء يتألف من مئات الملايين من قوالب الطوب...

فإذا كانت الروح مظهراً من مظاهر الجسم فقط، وجب أن تطرأ عليها التغيرات بمجرد حدوث التغيرات على الجسم، تماما كما تتأثر ماكينة بأكلها بمجرد أن ينكسر أحد تروسها، وكما تتأثر آلة الموسيقى بكسر وتر واحد من أوتارها.

ولكن هذا لا يحدث فيما يتعلق بالروح، فالروح إذن شىء آخر غير الجسم، ولها وجودها المستقل »(١).

ومن ثم فالقول ببقائها بعد الجسم قول يعين عليه العلم عونا كبيراً، بل صرح به كثير من الباحثين فى الدراسات النفسية، وتأدى بهم الأمر إلى القول بالحياة بعد الموت، ومنهم على سبيل المثال، البروفيسور س. ج. دوكاس... الذى بحث الجوانب النفسية والفلسفية من نظرية الحياة بعد الموت!... وعلى الرغم من أن... دوكاس لا يؤمن بالحياة بعد الموت —

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٥، ٤٦